« جين ايير » بين مترجمات البعلبكي

بقلم علي نزيعور

« جين ايير » كلاسيكية خالدة ، ورائعة تتحدى الزمان .

والمؤلفة شارلوت برونتي قمة شامخة وروائية فذة جمعت التحليل الدقيق والتكنيك البديع .

والمترجم منير البعلبكي عملاق في عمله ، وجماعة في جهوده ومدرسة في اخلاصه وامانته ونشاطيته .

* * *

يقال عن التفكيرية العربية انها تتقبل المقالة بل ان اللغة العربية بالذات لغة نعوت ومترادفات ذات رنين وجلبة ، تحتوش الاكثر من الانفعال والعاطفية التعبيرية . ومهما يكن فان النعوت التي استعملت هنا للقطعة وللمؤلفة موجودة في جميع اللغات التي قرأت أو حوت جين ايير ، أما المترجم فان نتاجه الوافر الجني يشهد له ويفرض علينا الاقرار والامتنان.

والمعجب في هذا الكتاب الذي يقدمه المترجم حلقة براقة في سلسلة كنوز القصص العالمي ، هو وجوده بالذات في اللغة العربية التي ما تزال فقيرة الى الكثير من الروائع الادبية العالمية وبحاجة اكثر الى العديد من المترجمات القصصية الانسانية الحديثة لاغناء « الحقل » الفكري العربي وتسهيل انفتاحه على الاداب الكبرى الغربية وانتفاعه وتأثره بها ومنها .. كم هو كبير ولذيذ ذلك الاحساس بالثقة والبركة عندما نرى في لغتنا قطعة ادبية كبيرة رائعة غير معصورة ولا مصهورة، لها نفس الروح والنغمة والشذا الادبي الموجود في النص الاصلي . ان جين ايير موجودة من مدة في اللغة العربية لكن بشكل مكشف ومصور فقد الكثير من الدفء الذي يشع من الترجمة الحديثة والامينة والكاملة التي يقدمها هذه المرة الاستاذ منير البعلبكي. كما ان احدى المجلات كانت قد قدمت تلخيصا قصيرا للكتاب نفسه بعد بحث جاد ومطول عن المؤلفة والقصة خاصة من حيث انطباقها على القواعد القصصية الكلاسيكية ومدى نجاحها في تقديم الشخصيات وعرض تطور الاحداث وتهيئة الاجواء واشعاع الروح التحليلية والسير الطبيعي نحو خاتمة انسانية دافئة ملؤها الايمان بخيرية الكائن الانساني وطيبته الايجابية البناءة .

وللمترجمة الضخمة التي بين أيدي القارىء العربي شهرة وصدى في نفسه . فقد لاقى هذا العمل الادبي استحسانا بل تعاطفا قويا مع النفسية العربية ، ولعل السبب الاكبر في ذلك يكمن في تكوين وسرعة انفعال هذه النفسية مع المؤثرات التي تدفع نحو الناحية الحزينة المتألمة من الحياة ، أو ان المشكلة العاطفية والانسانية التي تعالجها شارلوت برونتي مشكلة تمتد الى روح الشرق وسيكولوجيته اكثر مما تؤوب الى غيره فهي اقرب اليه وألصق به وان تجاوزته أو تعدت حدوده لتبحث في نطاق الفرد بالمعنى الشامل والجامع للكلمة .. للشرق احساسه الكبير بعذابه ومن ثم بحثه عما يعذب نفسه اكثر ، كحالة تلك الطفلة المظلومة التي حتى في ساعات هنائها تخلق في اطارها النفسي أو تجلب اليه كل ما يوحي ويحدث الالم والعذاب ، وفي قراءة جين ايير نوع من التفريغ الانفعالي والتنفيس العاطفي لابن الشرق الباحث عن الحب والدفء والشقاء الذاتي للذات . جين ايير رائعة انكليزية الا انها عربية شرقية اكثر ثم انسانية عامة اكثر واكثر أيضا وأيضا ..

وتختصر المترجمة في ان «جين» تبدو خلال لوحات متعددة ومتنوعة في بيت ليس بيتها وظروف أقوى منها ، وفي هذه تبدو لنا في تعبها ومشاكلها النفسية وانعكاساتها وانعكاسات الغير امام نفس الامور والقضايا . أي ان «الانا» تقدم في « حقول » مختلفة وفي جميعها ينشأ توتر نفسي يسعى للخفض ويهدف الى اعادة الملاءمة او التكيف بين الانا وحقلها الآني.

وحتى المرحلة الجديدة في حياة جين ايير ، حتى وصولها الى البيت الجديد في ثورنفيلد عند طالبتها المقبلة « من صفحة ١ ـ ١٣١ » كانت كل الحلول المقدمة طرقا غير مباشرة فهي اما نكوصية واما استبدالية وتعويضية وجزئية .. الا اننا نسير شيئا فشيئا نحو ايجابية تنمو رويدا رويدا وبحذر وحيطة . تماما وبشبه كبير مع ما أظهرته الدراسات السيكولوجية للطفل الفقير في تفاعله وعراكه مع الغير والعالم « تجربة العالم النفسي بلانت PLANT مثلا » وفي المدرسة والحياة العامة .

العملية اذن دراسة ممتازة حسية وواقعية للانفتاح التدريجي على الثقة ، أو انها مخاض وتحقيق شاق ووئيد لتجربة كفاح «أنا» وحيدة ومتوحدة في معركة تتضح دلائل كسبها بصعوبة وجهد ، وكل ذلك في اطار واقعي. فأتى العمل درسا موضوعيا بواسطة اراء الغير ـ وذاتيا على الاخص ـ بواسطة سرد البطلة بالذات ـ وبهذا فأضواء ذاتية وان تغلبت تعطي أو تدرس « مواقف » و « أوضاعا » لا أنا « مجردة » ولا انسان عام مطلق لا وجود له الا في علم النفس العام .

أما المرحلة الثانية فهي أيضا تتابع لوحات رائعة لحياة جين ايير في مجتمع جديد ، انها القسم الثاني لكفاح « الانا » في حقل شاق قطبه الرئيسي المستر روتشيستر مالك ثورنفيلد الموطن الظريف والجميل الذي تألفه جين .. وهكذا حتى تسمع ضحكة غريبة غير طبيعية وغير بهيجة وهنا تبدأ مشكلة ان لم تكن عقدة بالمعنى الكلاسيكي ، وهي البحث عن سبب هذه الضحكة ومصدرها وستكون صاحبتها العقبة الرئيسية او الحاجز الذي يمنع حل التوتر والمادة الملائمة للحقل النفسي والاجتماعي. والحواجز الاخرى المعيقة ـ والضرورية لاظهار دراسة جين كمعلمة ورفيقة وصديقة وذات شأن ـ هي ظهور مس اينغرام مثلا ثم التعرف على المجنونة وظهور دورها كعقبة رئيسية ضد الزواج . وتكون هذه المجنونة زوجة المستر روتشيستر « امرأة فارعة الطول ضخمة الجسم ذات شعر أثيث قاتم » ص ٣٩٢.

هنا تترك جين حبيبها ونقرأ عواطفها وانفعالاتها تجاه الحب والعشق ثم موقفها في حالة صارت فيها تأكل العصيدة التي قال صاحبها « ان الخنزير غير راغب فيها » ص ٤٥٦ وبعده تلتقي بسان جون ويعرض عليها الزواج ، الا انها تعود لترى روتشيستر حيث تلاقي « سكون الموت يخيم على القصر » (ص ٥٨٩) فقد التهمته النار بيد المجنونة بيرتا ويكون روتشيستر قد فقد بصره أو صار في وضع أضعف واكثر حرية.

المرحلة الثالثة اذن هي العودة للعذاب بعد ان تعرف سر الضحكة، والملاحظ ان المؤلفة شارلوت برونتي التي تسرد في جين ايير الكثير من وعن حياتها ، تحب عذابها وتسر لتأليم نفسها بنفسها في حلولها النكوصية والانهزامية لتوترها وكأنها تكفر عن ذنب وحتى ان كان كل ما أصاب جين ايير قد حدث لها بالفعل .

أما الفصل الاخير ـ التقسيم لتسهيل الدرس فقط وهو اصطناعي ـ فهو دعوة جين ولقاؤها مع حبيبها الذي تقول له رغم ما به وما أصابه: « لن أفارقك منذ اليوم يا سيدي ، مدى الحياة » (ص ٦٠٣) . الحب ينتصر ويتغلب على الصعاب، تماما كما في القصص الخيالية واحلام

المراهقين والعشاق ، والحب يتوجه الى الشخصية بكاملهـــا وكليتها لا لوجود هذه أو تلك من الصفات ، تماما كما يقول علم النفس عن الحـب بأنه لا يتجزأ وظاهرة كلية وطريقة من طرق المعرفة بل والمنطق ايضا.

اذن ينتهي الكتاب او القصة بحل ايجابي يشبع الرغبات والميـول الخيرية والانفتاح على العمل والامل ويحقق الايمانية بايجابية الانسان وطيبته ، وحتى الاعمى يستعيد بصره ويعيش الجميع في وئام وهنـــاء لا جبن وزوجها فقط، فينتهي الخط المتعرج الذي رسمته المؤلفة للاحداث، عند نقطة ترغب بها هي وتجسد أمنيتها بالذات وقد يكون هو ما تحقيقة وبالفعل ...

ومن رأيي أن دراسة الترجمة بالذات أجدى وأنسب من الحديـث عن المؤلفة وكتابها اذ ان هذا امر معروف يشهد الادباء بوجوده المتـاز، ثم ان الحكم على اعمال المترجم بشكل عام أمر ضروري وواجب فأعمـاله ذات انواع منوعة واصناف مصنفة وكثرة قد لا تستكثر على أديب جـاد وئيد الخطى ورزينها كالاستاذ منير البعلبكي.

في البدء ، ان انتاج هذا الاديب الرجل غزير يلفت الانتبـــــاه ويسترعي الاهتمام الزائد ، لا خليفة يكافىء ولا امير يود جذب الشعراء الى مجلسه . انه ينقل في « دار حكمة » يخصه هو بيته وبعد الانتهـاء من عمله اليومي بالطبع الذي قد يهيء له الاجـــواء المناسبة والاطـر الضرورية الملائمة .

ويلاحظ وجود مخطط عام يتبعه المترجم في عمله ونشاطه فهو لا ينقل كيفما اتفق وبصورة عفوية انعكاسية ، بمعنى اننا نقدر على استكشاف نظرة الاستاذ البعلبكي او مفاهيمه للشؤون الفكرية . وأظن انه لو لـم يترجم ما ترجمه حتى الان واراد التأليف لما كتب الا في الميادين التـي حرث فيها وفضلها واختارها . ان عمله متعدد الجنبات بالفعل الا انـه قد يندرج تحت الابواب التالية :

١ ــ الناحية العربية والاسلامية :

وهذه هي النظرة الرئيسية عنده أو ان ذاك هو المهاد الفـكري القائم على ايمانه بالحضارة العربية والتراث الاسلامي لها . وفي هذا المجال ترجم او ساهم مساهمة ــ اولى في تقديم « تاريخ الشعـوب الاسلامية » للمستشرق الكبير كارل بروكلمان ، وفي اجزائه الخمسـة بالتمام والامانة . وترجم أيضا « دفاع عن الاسلام » للمستشرقة فاغليري و ... ثم وعلى سبيل المثال فقط « الاسلام والعرب » الكتاب الهام الذي ألفه روم لاندو ، أو كتاب النبي محمد لمولانا محمد علي فترجمة هـذا الاخير اغناء وثروة وسد نقص وفراغ ..

٢ ــ سلسلة قصص انسانية :

وقد ترجم الاستاذ البعلبكي اثنتين وعشرين قصة من الشوامخ العالمية ذات النزعة الانسانية، وامكن بهذا للقارىء العربي ان يطلع على كنـوز من الادب الذي لا يخص الاميركيين ولا الطليان او الفرنسيين والروس بقدر ما هو للانسان بوجه عام ، للانسان بالمعنى الاخلاقي للكلمة ..

ان منير البعلبكي عرّف القارىء العربي وبشكل منظم وامين على الروائع الهامة لكبار الادباء العالميين:

هاورد فاست في المواطن توم بين وديكنز في اوليفر تويست، وعرفنا ايضا على غوركي في : اسرة آرتامونوف ، حكايات من ايطاليا ، ذات ليلة من ليالي الخريف ، همنغواي : الشيخ والبحر ، ثلوج كليمانجارو ، وداع للسلاح .

كالدويل : طريق التبغ ، أرض المآسي ، أرض الله الصغيرة، بيت في المرتفعات .

شتاينبك : أفول القمر ، العاقر .

هذا عدا الترجمات الاخرى لجاك لندن « العقب الحديدية » ، وكفكا « المسخ » وبيرل باك « الارض الطيبة » .

انه ، كما يبدو عمل جم وافر بل هو نافع ومفيد للغة والادب العربي واكثر افادته للذهنية العربية والمجال التفكيري العربي . وتلاحظ تـلك العقلية التنظيمية في أعمال الاستاذ المترجم او الخطة التي يتبعها لاغنـاء المكتبة العربية بترجمته لبعض الخوالد من التراث الكلاسيكي ، فقد قدم لنا مثلا «قصة مدينتين» ووجود هذه عندنا ثروة واعتزاز . اما ترجمـة « البؤساء » فقد قدمها بشكلين : الترجمة الاولى بشكل كامل وفي خمسة مجلدات والترجمة الثانية بشكل ملخص . هنا في نقل « البؤساء » قدم المترجم الكثير من التعليقات والحواشي فجاء عمله انفع وأصح وان كانت تلك الحواشي تشغل بال القارىء وتشتت انتباهه الى نواح متفـرقة تبعده عن روح الكتاب ومقاصده .

سلسلة اخرى يقدمها البعلبكي وتظهر اهتمامه بمشاكل الحاضـر الهامة ورغبته في تقديمها للقارىء باسلوب مبسط ، انها سلسلة قـد تسمى المشاكل الحاضرة ، وهي تعنى بتثقيف سريع للقارىء العـادي وذات منفعة جلى بلا ريب وان اتصفت بالتسرع وتبسيط الامور .

اما السلسلة التي يسميها ب : « علم نفسك » فانها اشبه ما تكون بسلسلة الكتب التي تهدف لاشاعة العلم على اوسع نطاق دون ان يفقد شيئا من رزانته وعمقه ، الا انه من الضروري تقديم حلقات أكثر في هذا الباب وتتعدى الشكل الذي هي فيه اليوم فمن الثابت انها تنجح وتكسب القراء وتفيدهم اذا زاد الاعتناء بها وتنوعت موضوعاتها وكثرت أعدادها.

***

هناك بعض النواحي الصحفية في عمل الاستاذ بعلبكي التـرجمي، في تقديم بعض الكتب او الاسراع احيانا في اختيارها . الا ان الميـزة الرئيسية لاعماله هي الرزانة والتمهل وحسن الاختيار ثم الامانة فـي النقل . ولدراسة مدى أمانته للنص الاجنبي أخذت بعض العينات : عدة اسطر من كل فصل ، وكانت العينة من منتصف الفصل أحيانا لا مـن أوله ، وبدت بعض الملاحظات الايجابية ، فقد وقف الى جانبه صـديق ترجم صفحة بكاملها واتضح ان المترجم البعلبكي لا يقل تضلعا باللغـة الانكليزية عن المؤلفة بالذات ، أو لنقل أنه فهم واستوعب الى اقصى حد ما تريد قوله وما تود الافصاح عنه ، أما النص العربي ، أو مدى قـدرة الاستاذ على صب اللغة الاجنبية وفكرتها واسلوبها في التعبيـــرية العربية فلا ريب هنا بالتوفيق او النجاح البعيد الذي قد يعود للتمرس الشديد وكثرة المزاولة لاعمال الترجمة ثم بسبب كفاءة ممتازة وقـدرة رفيعة .

* * *

قد لا تشعر بترجمة الكتاب ، فقراءة جين أير الذي نأخذه كمثـل على مدى دقة الترجمة ، تجعل الانسان يتألم عند الوصول الى نقـاط مؤثرة ، ويشعر بشفافية الحزن كانفعال كلي يلف المطالع في تعـاطف عفوي لا شعوري ، هذا الى جانب احساس بانبجاس الفرح الداخـلي لايجابية البطلة في هنائها وصفائها . وبكلمة ، لا يعيق الشعور بالحياة مع بطلة الرواية في الاطار النفسي العام ، تعرج جمل ولا حوشية كـلام أو التواءات اسلوبية .

عدا ذلك لا نشعر أن الكلمات تنقصه فهي تتدفق احيانا كثيـــرة كأنها طوع بنانه وحتى في الحالات التي تشف فيها اللغة وتتعرج متعرضة لعواطف فردية حية نامية واحاسيس خاصة صميمية وضرامية. وبالفعل فاننا نشعر بالدفء الادبي والحرارة والحياة التي تشع من لغة شارلوت برونتي الشاعرية الانيقة والرقيقة .. الا ان هذا لا يعني انه لم يلجـأ الى خلق الكلمات احيانا والترجمة المنفلتة او الذاتية أحيانا اخـرى، مفردات كثيرة حلوة وجميلة يستعملها منها ما مات أو على الطريق ومنها المدفون والمركب والمنسي ككلمات طومار وتيهور والميـار والشهبلوطـة « شجرة » وغير ذلك .. الا ان في عمله هذا ما يلفت الانتباه العميـق ويثلج الصدر لتأديته وقيامه بالمطلوب واللازم.

ترجمة فرد قد تفضل احيانا عديدة ترجمة اثنين او اكثر ، ينقـل واحد من هؤلاء ثم يعيدها أو يراجعها اخر . في الترجمة الفردية تكون المسؤولية اكمل وبكل ثقلها ووزنها ، الا انه في سبيل بلوغ هذه المنزلة يجب ــ عدا الامانة والاخلاص ــ ان يتخصص المترجم الواحد في نقـل اثار متقاربة او تنتسب الى ميدان واحد ، لان هذا أجدى واسهل عـلى المترجم وأضمن لسلامة عمله وجودته ودقته ، واعتقد ان الاستـــاذ البعلبكي لم يبعد الى حد ما عن هذه المبادىء الاساسية . واخيرا فهو يستحق الاحترام وعمله يفرض الاعجاب والتقدير ومترجماته توحي بالثناء والشكر ...

علي زيعور